ولنا مثال آخر في الخيل البرية التي تسرح في مفاوز اميركا الجنوبية وهي تتناسل من الافراس التي ادخلها الفاتحون الاولون عند دخولهم تلك الاصقاع فعادت في البراري الى حالة وحشيتها القديمة . واذا اراد الجنود الموكول اليهم امرها ان يقبضوا على بعضها احاطوا بها ثمَّ سعوا الى توجيهها الى مدخل حظيرةٍ مغروسة بالاوتاد في طرفيها . فالمدخل واسع رحب في اولهِ ثمَّ يتدانى خطُّ الاوتاد وينتهيان الى حظيرة يمكن إقفالها . فالخيل اذا احسَّت بعدوّها تندفع في المدخل المذكور حتى تنتهي الى الحظيرة فتوصد وراءها ويقترب حينئذ الجنود فيلقون ربقتهم حول قوائمها ويطفرون فوق متونها ويتشبثون بعرفها ثمَّ ينهبون فوقها البطاح وهم يضربونها بشمرة سياطهم ويغمزون كلكلها بالمهاز ساعاتٍ الى ان يعيا الجواد مجهودًا فيسكن او يهبط كَلَلًا فيُسرع الراكب الى مقودٍ يجعلهُ حول عنق الفرس ويجعل الشكيمة في فيهِ ويلجمهُ فيصبح اذ ذاك في قبضتهِ فيروضهُ بعض الدفعات الى ان يصبح طوع امرهِ مروضًا فيتخذهُ لما شاء من حاجاتهِ على اختلافها حتى يقودهُ الولد الصغير ويركبهُ فيجري بهِ حيثما اراد وذلك لأنَّ مالقيهُ من الضنك والقهر لاول مرةٍ قد انطبع في مخيلتهِ فيكف عن الجموح والنفور . وكل مايصنعهُ بعد ذلك انما هو نتيجة تربية الانسان وفعل عقلهِ لا حصة فيهِ لغريزة الفرس

فهذه المقابلة بين طبيعة الحيوان وفطرتهِ وبين عقل الانسان واحتياله تبيّن جليًا ما لكلٍ منهما من الفعل الخاص فانَّ غريزة الحيوان تدفعهُ الى الهرب فالانسان يسعى بتوجيه سيرهِ الى نقطةٍ معلومة . يدفع الوهمُ الحيوان الى ان يسير السير الحثيث في البطاح وهو لا يرى انَّ سيرهُ هذا يضعف قواه فالانسان العالم بما سينال الفرس من العناء يتخذ ذلك وسيلة لكبح جماحهِ ولبلوغ غايتهِ . ولو كان للفرس ذرة من العقل لعرف قوَّته وفكَّر في اخذ ثارهِ من عدوّهِ واستخدام سرعة قوائمهِ لينجو من عبوديتهِ ويستعيد حريتهُ . على خلاف الانسان الذي يحوّل تلك السرعة وتلك القوة لمنفعتهِ الخاصة

فكفى بهذه الامثلة شاهدًا على بيان ما قلناهُ عن الواسطة الثانية التي يتوسل بها الانسان لتأهيل الحيوان اعني بها الترويض

ثمَّ انَّ في الحيوان نفسهِ استعدادًا لترقية خواصهِ الوهمية . فالقرد مثلًا من طبعهِ مؤهَّلٌ لتقليد ما يراهُ وقد لاحظ ذلك كتبة العرب واخبروا لتأييدهِ عدَّة اخبار قد وافقهم على صحتها المحدثون . فاذا اخذهُ الانسان في خدمتهِ وعُني في تربيتهِ يتقلَّد ما

يشاهده من الاعمال ولاسيّما اذا مرّنهُ عليها صاحبهُ بالتمرين المتواتر . فنسبة هذه الاعمال الى عقل القرد شطط . فاذا رأيناه اذاً يقتدي بالانسان في ذهابه وايابه وفي جلوسه على المائدة واكله وشربه فكل هذه الاعمال توافق طبعهُ الغريزي يعملها بقوّته التقليديّة دون ذرّةٍ من العقل والتمييز لأنَّ مخيّلتهُ تأثرت من نظر الاعمال المذكورة فيعيدها كما رآها لا يفقه معناها كما تكرّر الببغاء ما تسمعهُ دون فهمه

وممّا يُروى عن احد علماء الطبيعيّات في باريس في القرن الثامن عشر انهُ كان ربّى قردًا وأحسن تثقيفهُ حتى كان يُعدّهُ كأحد اهل البيت . وكان المذكور قد جمع في حجرته عددًا عديدًا من الحشرات والهوامّ والفراشات نظّمها في علب مشكوكةً بدبابيس . فخرج يومًا وترك القرد في الحجرة سهوًا فما غاب سيّدهُ حتى تهافت على الحشرات المغروزة والتهمها دون ان يخطر على باله انَّ هذا المجموع عزيز على سيّده تكلّف في جمعه الاتعاب والنفقات الطائلة . على انَّ شرهَ صاحبنا أدّى به الى عطبه فانّهُ لم يلحظ انَّ لكلّ حشرة دبّوسها او إبرتها فازدرد الهوامَّ مع ابرها التي نشبت في حلقه فخنقتهُ . فانظر يا رعاك الله مبلغ عقل هذا القرد الذي لم يدّخر صاحبهُ وسعًا في تهذيبه وهو كما يزعم بعضُ الجهلاء شبيه بالانسان في نطقه . وكم حوادث أُخرى تدلُّ على بلاهة القرود وتغلّب طبعها على تطبّعها . ولنا في ذلك شاهد قريب في القرد الذي عضَّ صاحبهُ ملك اليونان اسكندر فكان علّة موته

ولعلَّ الكلب هو اوّل الحيوانات الداجنة التي عُني الانسان بتربيتها . وليس من شأننا ان نبحث عن اصل الكلب أهو نوع من الحيوان مستقلٌّ بجنسه او هو من نسل حيوان آخر سبقهُ فباد اثرهُ . او هو بالاحرى من مواليد بني آوى (الواويّة) اتّخذهُ الناس في صغره وربّوهُ وثقّفوهُ فاكتسب صفاته الالفيّة واورثها صغارهُ . وممّا لا يُنكَر انَّ بين الكلب وبعض اجناس بني آوى او الذئاب ايضًا شبهًا تامًّا كما يعلمهُ اللبنانيّون . وفي الحبشة جنس من بني آوى يشبهُ الكلاب السلوقيّة الطويلة القوائم فمن المحتمل انَّ الكلاب متسلسلة عنهُ

ومهما كان من اصل الكلب فلا شكَّ انّهُ الحيوان الذي دخل عليه بفعل الانسان اكثر من سواهُ اختلافاتٌ عديدة في الهيئة والخواصّ العجيبة . فترى بين الكلاب ما هو مختلف الحجم مختلف اللون والوبَر مختلف الصورة والشكل . منها الكلب

الموقوف للحراسة ككلب الرعاة الذي يقوم في وجه الضواري فتخافهُ السباع والناس ومنها الكلب الانيس الذي يرافق صاحبهُ ويُصبح لهُ ولاولادهِ صديقاً اميناً وملهاةً شائقة . ومنها ما عُني بإنعاش حاسة شمّها فتستنشق رائحة الصيد من بعيد وتبحث عن صاحبها فتجدهُ رغماً عن ابتعاده . كما أنها تعرف حوائجهُ فتأتي بها اليه وتصونها . وقد اهتمَّ بعض مقتني الكلاب في تقوية اعصابها فتصبح من اسرع الحيوانات ركضاً واطولها نفساً . وفي بعض البلاد يتَّخذون الكلاب لسحب العجلات الصغيرة الناقلة الى الاسواق محصولات الزراعة لبيعها او يُركبون فوقها احداث الاولاد . وفي البلاد الشمالية كلابٌ يقطعون بها المفازات المثلجة والجليديَّة وهي تجرُّ عربات يركبها السيَّاح والمرسلون الكاثوليكيُّون لخلاص النفوس . هذا الى ما لا يُحصى من الخدم التي تؤديها الكلاب على اختلاف انواعها البالغة المئات من الكلب الصغير الذي يحملهُ صاحبهُ في جيبهِ ويتلهَّى بهِ في بيتهِ الى الكلب الكردي او كلب الارض الجديدة الشبيه بضواري السباع

فكيف يا ترى تمكَّن الانسان من ان ينال كلَّ هذه الاختلافات والتحوُّلات ؟ انَّما بلغ الى ذلك بدرسهِ لطباع الكلاب وغرائزها الاصليَّة فاختار بينها ما وجدهُ قابلاً لبعض الخواصّ والصفات فاجتهد في تنميتها بالتمرين والتثقيف والتربية الافرادية . ثمَّ سعى بان يجمع بين اجناسها المختلفة لتتولَّد منها اشكال جديدة بعد ان ألغى منها ما لم يجدهُ صالحاً لغايتهِ . فنتج عن تلك المساعي انهُ نال انواعاً مختلفة ذات صلاحية لامور شتَّى . وهكذا جرى لهُ في دواجن الحيوان التي تألف بيتهُ . وقد حصل على ذلك كما حصل على انواع النباتات السابق ذكرها التي عُني بفلاحتها وزرعها فأولاها بهمَّتهِ خواصَّ جديدة توارثها النبات النامي من بزرها . فعلى مثلها اكتسب الحيوان تلك الصفات التي استخرجها الانسان من غريزتهِ القابلة لها . ومن المعلوم انَّ هذه الخواصَّ ان لم يواصل الانسان اعتناءهُ في حفظها وصيانتها تُفقَد بعد زمن قليل حتَّى يعود النبات والحيوان الى ما كانا عليهِ من حالتها البريَّة والوحشيَّة

ففي مثل الكلاب وما طرأ عليها من اختلاف الاحوال برهانٌ حسيٌّ على ما للحيوان من الغريزة وعلى ما يستطيع الانسان بعقلهِ ان يستخرجهُ من تلك الغريزة . وهل يا تُرى منذ القرون الطويلة التي صرفها الانسان في تربية الكلاب فتمكَّن من

جعلها رفقاء لهُ وجلساء. اصاب واحدٌ منها ذرةً من العقل ليتخذ الدرويثيّون ذلك دليلًا على مذهب النشوء والارتقاء ؟

انَّ الجواب على ذلك سلبيٌّ محضاً . ولنا على هذا الف دليل . اخبروا ان كلباً كان صاحبهُ عوّدهُ على حراسة ما يُجعل بين يديهِ من طعام وغيرهِ فلا يمسّ منها شيئاً الّا باشارتهِ فنسيهُ صاحبهُ يوماً في بيتهِ وعلى المائدة قطعةٌ من اللحم وسافر الى بلدٍ آخر ولم يرجع الأبعد حين فلمّا دخل بيتهُ رأى اللحم سليماً والكلب ميتاً بقربهِ جوعاً

فاستنتج المدافعون عن فهم الحيوانات انّ هذا الكلب اعرب عن تمييز وعقل فآثر الموت على مسّ اللحم قياماً بوصيّة سيّدهِ

امّا نحن فنحمل عملهُ بالعكس على بلاهتهِ وخلوّهِ من العقل . فلو كان عاقلًا لفكّر في نفسهِ انّ صاحبهُ اقفل بابهُ وسها عنهُ فلا يريد موتهُ بل يحقّ لهُ ان يغتذي باللحم الذي بقربهِ ولا يعرّض نفسهُ للتلف . لكنّهُ جرى على سابق تأثيراتهِ الحسّيّة وما لقيهُ من زجر او ضرب معلّمهِ لمّا كان يخالف اوامرهِ . وشتّان بين هذا والعقل

مبلغ الوهم ومبلغ العقل

انّ الانسان اذا رأى في الحيوان اعمالًا تبعثهُ غريزتهُ على ابرازها او اعتادها بالتربية والتثقيف ينسب ذلك الى العقل لما يجد فيها من الشبه بالاعمال البشريّة . لكنّهُ منخدع في حكمهِ هذا لانّ الاعمال البشريّة حتّى الصادرة عنّا بحركة طبيعيّة لا تخلو من شيءٍ من فعل العقل إمّا مباشرةً لمّا اعتاد الانسان على تلك الاعمال الغريزيّة وامّا ضمناً باندماج العقل واختلاطهِ بالفعل . ثمّ انّنا نحكم في عمل الحيوان نعيرهُ من تلقاء ذاتنا نيّةً دافعة لهُ عليهِ لأنّنا قد اعتدنا ان نجري مثل هذا الحكم في اعمالنا البشريّة

قد رأى كلٌّ منّا كلباً أكل كفايتهُ فشبع وفضلَ عندهُ كسرة من الخبز فلا يدعها بل يأخذها فيطمّها في بعض الخباء الخفيّة . فمن يعاين عملهُ هذا يحكم في فكرهِ قائلًا : «نِعمَ ما فعل هذا الكلب فانّهُ احسّ بشبعهِ حاضراً فاراد ان يدّخر لهُ قوتاً ليوم آخر لعلّهُ لا يصيب طعاماً» لكنّ هذا القياس نبنيهِ نحن في عقلنا لما نجدهُ من الشبه بافعالنا لمّا ندّخر لغدنا شيئاً من مأكول اليوم . فانّ الحيوان لا يدرك معنى الزمان ومن المعلوم انّ الكلب كبقيّة الحيوانات اذا شبع او اعتلّ يمتنع عن الأكل وبهذا يفضل

على كثير من الناس المزيّنين بالعقل والذين ينسيهم الشره عقلهم في الأكل والشرب.
وان سألت ما هو اذن سبب اخفائهِ لفضلة طعـامهِ ؟ اجبتك ان هذا شيء من وهمهِ لا ادري لهُ تعليلًا وان شئت فسأل الراعين بمعرفة لغة الحيوان لعلّهم يفيدونك عن سبب فعلهِ. امّا انّ فعلهُ مجرّد وهم فيتبيّن من كونهِ لا يبحث في الغد عمّا خبأهُ ليأكله. وان وجدهُ بالصدفة فانّما استدل عليهِ بحاسّة الشمّ كما يستدلّ على اي طعام كان سواه

وممّا روتهُ مجلّة كوسموس (le Cosmos) في احد اعداد سنة ١٩١٩ انّ احد عمّال ملك سكسونية الموكّل على كلاب الصيد لسيّدهِ افرغ جهدهُ ليعلّم واحدًا منها بعض حروف الهجاء مثل «اي ولا» ثمّ أسمعه عدّة اسئلة وعلّمهُ ان يجيب عليها باحدى الكلمتين فعُدّ ذلك لدى بعض اساتذة المانية كآية دالّـة على عقل الكلب لكنّهم ما غيّروا قليلًا ترتيب السؤالات او اضـافوا اليها شيئًا حتى نسي الكلب كلّ علمهِ واضحك سامعيهِ بسوء اجوبتهِ. وقس على ذلك ما روتهُ سابقًا مجلّتا المقتطف والهلال عن بعض الحيوانات الناطقة او الحاسبة فقد الشرق مزاعمها وما لبث ان ظهرت الحقيقة وعُرفت حيلة معلّمي تلك الحيوانات

وما قلناهُ عن تثقيف الانسان للحيوان لا يدلُّ على انـهُ يريد ان يولي الحيوان قوًى جديدة بل غايتهُ فقط ان يتّخذ مـا طُبع عليهِ الحيوان من القوى الغريزيّة من اصلهِ ليستخدمها لمنفعتهِ

لنا مثال على ذلك في بيض الطيور فـانّ الطبيعة خوّلتها البيض لصيانة نسلها فاستفاد الانسان من تلك القوّة لخيرهِ الخاصّ وسوّل للطائر بان يبيض بيضًا اكبر حجمًا واكثر عددًا ليتمتّع هو منها لطعامهِ قبل حضانتها

ومثلهُ الحليب في ذوات الاثدية فانّها تدرّ حليبها لطعام صغارها فوجد الانسان انّ حليب البعض منها يحسن لغذائهِ فاختار بينها مـا رآهُ احدث خلقًا قابلًا للتربية فسعى في اصلاح طعامها ثمّ افرز مـا كان اقوى بنيةً فصارت تدرّ لهُ حليبًا اغزر من ذي قبل اذ كانت في وحشيّتها فاغتذى بهِ واطعم صغارها قوتًا غير الحليب ارخص ثمنًا

فهذه الطرائق من حسن الاختيار وجودة التربية بلّغت الانسان الى تحسين اجناس الحيوان كالضأن والمعز والبقر الخ ليربح لبنها ولحمها وصوفهـا. واذ وجد في الخيل والجمل والفيل قوّة عظيمة تمكّن من تربيتها ليستفيد من تلك القوّة. لمتاز الكلب

بحاسّة الشمّ وغريزة الصيد وغير ذلك من الخواص فصرفَ الانسان تلك الصفات لاصطياد الوحوش ولاستخراج الكمأة من الارض ولحراسة داره ومواشيهِ. طُبعت الهرَّة على اقتناص صغار الحيوان مع ما خُصَّت بهِ من حسن البصر ليلًا فاتَّخذها الانسان لخدمة بيتهِ وتنظيفهِ من خشاش الحيوان . وفي اميركة الجنوبيَّة حيث لا يعيش القطّ يتَّخذون بدلاً منهُ حيَّة ضخمة تقوم مقامهُ كما يستبدل المصريون القطّ بالنمس . وعلى هذا النمط يستطيع الانسان على مقتضى الازمنة وحالات البلاد ان يستخدم المخلوقات التي دونهُ . فيستعين بالجمل في البلاد الشديدة الحرّ وبالآيال في القارسة البرد وهلم جرًّا. ومن هذا كلّهِ ترى الفرق بين وَهْم الحيوان الضيّق الدائرة وعقل الانسان الواسع النطاق الذي يصرف الكائنات الى تتميم رغائبهِ

وما لا شكّ فيهِ ان معظم دواجن الحيوان ما بلغت الى ما هي عليهِ من الائتلاف وتحسُّن الحال الّا بمساعي الانسان الذي جوَّد طباعها الغريزيَّة . على ان البعض منها فقدت بتأهيلها وتربيتها شيئاً من اخلاقها الاصليَّة . فان ديك الحبش مثلًا اطيبُ لحماً واجمل ريشاً في حالتهِ الوحشيَّة منهُ داجناً . وكذلك البطَّة الوحشيَّة احرص على حضانة بيضها من البطَّة الاهليَّة بخلاف الدجاجة الحريصة على الحضانة حتَّى انَّها تتلف في عملها ان لم يراقبها اصحابها . على ان الانسان اكسبَ انثى ديك الحبش صفةً جديدة بأن دفعها الى حضانة البيض كلَّما شاء. وفي ذلك من الفضل ما لا يخفى اذ يمكنهُ ان يحصل على الفراريج في كلّ فصول السنة حينما يغلو ثمنها . وفي بعض البلاد يرتزق الناس بجمع اناث ديوك الحبش فيؤجرونها من شاء حضانة بيض دجاجهِ

وخلاصة الكلام ان ما يحدث من تنمية القوى وتحسين الصفات في دواجن الحيوانات التي يختصُّها الانسان بخدمتهِ لا تصحُّ نسبتهُ الى الحيوان نفسهِ بل الى حذاقة الانسان. فلو كان اتَّصل اليها الحيوان من تلقاء نفسهِ لجاز القول ان الحيوان يترقى ويزيد كمالاً ولأمكن تبعة دروين ان يثبتوا نوعاً مذهبهم في النشوء والترقي وينكروا تكوينها من الخالق كما يزعمون الآن دون ادنى دليل. والصواب ان هذا الترقي المزعوم في الدواجن انما عاملهُ الوحيد هو العقل البشري ليس الّا

قال احد علماء عصرنا في هذا الشأن: « قد تسلَّط الانسان على الحيوان واستعان بما وجدهُ حولهُ من الوسائط كأحوال الزمان والمكان والطعام فغيَّر نوعاً طباع الحيوان

دون ان يُحاوِل من تلقاء ذاتهِ ان يحسّن حالهُ . فنال هذا التحسين من غيرهِ وهو لم يُظهر بعلامةٍ ما كونهُ عالماً بهذا التحسين او راغباً فيهِ كالشجرة التي يلوي الانسان اغصانها ويسعى بتشكيل زهورها كما يشاء . فعاملُ التحسين في الحيوان ليس هو فيهِ ومنهُ بل هو خارجاً عنهُ . لا يسعى وراء الكمال ولا يدركهُ وانما هو مسوقٌ اليهِ ... وبكلمة واحدة نقول قد ثبت ان اكمل الحيوانات ولو حصلت في اوفق الظروف وانسب الاحوال لا تعي شيئاً من امر ترقيها ولا ترمي اليهِ بمشيئتها وادراكها(١)

ترجمة يوسف الاوّل بطريرك الكلدان

١٦٨١–١٧٠٧

لباسيليوس عبد الاحد مطران آمد

توطئة

في مكتبة الكلدان في ديار بكر كرّاس صغير يحتوي على ترجمة حياة البطريرك يوسف الاوّل الذي كان مطراناً نسطورياً فارتدّ الى الكثلكة بعد ان ثبت لهُ صحّة ايمان الكنيسة الرومانيّة فاقامهُ البابا اينوشنسيوس الحادي عشر بطريركاً على الكلدان الكاثوليك سنة ١٦٨١ فسكن مع خلفائهِ في آمد اي مدينة ديار بكر وكانت وفاتهُ سنة ١٧٠٧ (اطلب المشرق ٣[١٩٠٠]: ٨٧٨–٨٨٠) . وقد لقي بارتدادهِ عدّة محن وصفها احد تلامذتهِ باسيليوس عبد الاحد الذي اقيم كاتب بطريركي على آمد فسُقّف سنة ١٧١٢ وتوفي سنة ١٧٣٢ . فهذا اذ كان واقفاً على كل تفاصيل سيرة معلّمهِ سطّرها في هذه القذلكة وهي اجمل اثر واصدق رواية لسيرة ذلك البطل الذي ثبت في الايمان مع ما قاساهُ من ضروب البلايا والاضطهادات كما سترى وذلك سنة ١٧١٩

ولنا على شهامة البطريرك يوسف الاوّل شواهد اخرى راقية الى عصرهِ منها ما كتبهُ السيد فرنسوا بيكه مطران سيزاروپل والقنصل لدولتهِ على حلب سابقاً لمّا مرّ في ديار بكر في اواخر أيّار سنة ١٦٨١ قاطراً عليهِ ولتتبّع في عمادهِ وكتب في ذلك الى مجمع انتشار الايمان والى قنصل فرنسة في حلب . وكان بودّنا ان نعرّب كلامهُ ورسائله لولا ضيق المكان (٢) . امّا السيرة

---

(١) اطلب معجم الجدليّات A.d'Alès, : Dictionnaire d'Apologétique, fasc. I. 126.

(٢) راجع ترجمة المطران فرنسو بيكه La Vie de Messire François Picquet Paris, 1732. pp. 359-369 ثمّ مذكرات الكڤاليار دارڤيو Mémoires du Chevalier d'Arvieux. Paris, 1735. VI. 95 -122